

الشخصية العراقية في كتابات الدكتور علي الوردي

(المحاضرة الاولى)

المجتمع العراقي كأى مجتمع آخر له تاريخه وعاداته وخصائصه وعلاقاته الاجتماعية وتنظيمه الاجتماعي وهو جدير بالدراسة، و دراسة اي مجتمع تهدف الى ايضاح المظاهر والسمات الاجتماعية وتأثير العوامل التاريخية والدينية والاقتصادية فيها، و يمكن الانطلاق منها إلى دراسة التكوين الأساس لشخصية أي مجتمع بوصفها نتاجاً شرعياً لتلك العوامل ودورها في صنع ظروفه الموضوعية. و كان للدكتور الوردي السبق في هذا لدراسة الشخصية و المجتمع العراقي. وقد حاول الوردي في أكثر كتاباته ولا سيما (دراسة في طبيعة المجتمع العراقي) أن يتدارس الشخصية العراقية وفق رؤيته وقد تناول الخصائص النفسية وتحليلها بصورة واسعة ليظهر بعض سماتها و وفق الحقيقة الزمنية التي عاشها المجتمع العراقي انذاك. إن الأساس الذي بنى عليه الوردي دراسته للشخصية العراقية هو وضعه فرضيات ثلاثة شغلت المجتمع العراقي وجعلته يدخل في مناقشات وتحليلات سوسيولوجية وقد بقى يكافح طويلاً لتقديمها وظل يرد الهجمات التي وجهها النقاد له بين آونة وأخرى فلم يهدأ ولم يتراجع عنها. ونعتقد إن استعراض ومناقشة هذه الفرضيات هي المفتاح الرئيس لمعرفة آراء الوردي في الشخصية العراقية والشخصية الريفية خصوصاً وهذه الفرضيات هي :-

١. الفرضية الأولى/ الصراع بين البداوة والحضارة.

٢. الفرضية الثانية/ ازدواج الشخصية.

٣. الفرضية الثالثة / التناشز الاجتماعي (الثقافي).

١- الفرضية الأولى/ الصراع بين البداوة والحضارة*

يعد مفهوم صراع البداوة والحضارة المأخوذ من العلامة (ابن خلدون) الأساس الأول والمنطق الذي اعتمدته الدكتور الوردي في تحليله لطبيعة المجتمع العراقي وتاريخه خلال القرون الأخيرة وقد بين ذلك قائلاً (لقد اجمع علماء الآثار ان العراق كان مهبط حضارة تعد من أقدم الحضارات في العالم وظلت الحضارة تراود العراق حيناً بعد حين ونجد العراق من الناحية الأخرى واقفاً على حافة منبع فياض من منابع البداوة هو منبع الجزيرة العربية فكان منذ بداية تاريخه حتى يومنا هذا واقعاً بين متناقضين من القيم الاجتماعية قيم البداوة الآتية من الصحراء المجاورة وقيم الحضارة المنبعثة من تراثه الحضاري القديم.

يتضح هذا الصراع باجلى صوره في العراق ان العراق ، على حد تعبير (توينبي) هو بلد (هابيل وقابيل) فكان المجتمع العراقي عرضة لمد البداوة وجزرها على توالي العصور . ويمكن القول ان اطول فترة سيطر فيها المد البدوي على العراق هي الفترة الاخيرة التي بدأت منذ سقوط الدولة العباسية ، او قبل ذلك بقليل ، ثم استمرت ما يقارب الستة قرون ، انهارت فيها سلطة الدولة ، واختل نظام الامن ، وتتابعت الفيضانات والابوئة والمجاعات ؛ مما جعل الحضارة تذوي في العراق وتستقل القيم البدوية محلها .

والمتوقع في مثل هذه الحالة ان يعاني الشعب صراعاً اجتماعياً ونفسياً على توالي الاجيال وقد يجوز ان نصف الشعب العراقي بأنه شعب حائر فقد انفتح امامه طريقان متعاكسان وهو مضطر ان يسير فيهما في آن واحد.

يكفي لفهم تلك الفترة ان ثلاثة ارباع السكان فيها كانوا يخضعون للتنظيم العشائري وتسيطر عليهم قيم العصبية والغزو والتأثر والدخالة وغسل العار وما شابه ذلك . اما الربع الباقي الذين يمثلون سكان المدن ؛ فهم وان كانوا يختلفون عن العشائر في بعض الامور الظاهرية ، كالمسكن والملبس وطرق العيش . غير انهم في اعماق انفسهم لم يكونوا يختلفون عن اولئك كثيراً ؛ فطالما تعصب ابن المدينة لمحلته ، كما تعصب الرجل البدوي لعشيرته . وحين ندرس شخصية صاحب الحرفة المدني ، نجده اقرب الى قيم البداوة منه الى قيم الحضارة ؛ فزعة

الغزو والفرهود اقوى عنده من نزعة العمل والانتاج ، فهو يميل الى ان يغلب الزبون بدلاً من ان يستميله على طريقة اهل الحضارة . هكذا تمددت اخلاق البداوة لتشكل واحدة من الخصائص العامة في طبيعة المجتمع العراقي .

يقول الدكتور الوردي إن مشكلة العراق انه حين ينحسر عنه المد البدوي لا يستطيع أن يتكيف للحضارة سريعاً حين تأتي إليه فهو يبقى متمسكاً بقيمه البدوية زمناً يقصر أو يطول تبعاً للظروف التي تواجهه ومن طبيعة القيم الاجتماعية بوجه عام إنها تبقى فعالة زمناً بعد ذهاب الظروف المساعدة لها فالناس إذا تعودوا على قيمة معينة صعب عليهم بعد ذلك أن يتركوها دفعة واحدة.